مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
مجلد: 12 عدد: 01 السنة 2020 ص 209 - 229

تاريخ الإرسال: 2018/12/29 تاريخ القبول: 2019/05/31
تاريخ النشر: 2020/01/08

المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي وتأثره بفقهاء بلاد المغرب- قراءة في المصادر العربية والإفريقية- ما بين القرنين (08ه-11ه/14م-17م)

Maliki Doctrine in Western Sudan and its influence by the Maghrébine Jurists .Reading of Arabic and African Sources Between (8th -11th H/ 14th -17th A.D)

الدكتور: احمد جعفري
جامعة غرداية (قسم التاريخ– كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية)
Jaafria551@gmail.com

ملخص:

يعود الفضل في وصول الإسلام والعربية وانتشارهما في بلاد السودان الغربي بالدرجة الأولى إلى الدور الذي قام به الدعاة والتجار المغاربة، ولم يتوقف التأثير المغاربي الديني واللغوي عند هذا الحد بل تعداه إلى تبني السودانيين للمعتقدات والمذاهب التي كانت سائدة في بلاد المغرب وفي مقدمتها المذهب المالكي، والذي يعتقد الكثير من المؤرخين أن وصوله إلى بلاد السودان كان مصاحبا ومرافقا لانتشار الإسلام، هذا المذهب يمثل والى اليوم احد المرجعيات الموحدة لبلدان إفريقيا جنوب الصحراء وبلاد المغارب برغم التحديات الأيديولوجية والفكرية والأوضاع السياسية والأمنية التي تواجه بلدان الساحل.

الكلمات المفتاحية: المذهب المالكي، الفقهاء، العلماء، سنغاي، مالي، تنبكتو، المغيلي.

Abstract : Thanks to the preachers and Maghrebian merchants that played a very important role in the arrival of Islam and Arabic with their spread in Western Sudan .The Maghrebian religious and linguistic influence had not stopped only in this point ; but also Sudanese embaraced the beliefs and doctrine of that time in the Maghreb .Most historians belived that Maliki Doctrine arrival to Sudan was accompanied by the spread of Islam .It was doctrine that still exist in these regions nowadays and represents a unity reference of African and South Sahara countries despite of the ideological and intelectual challenges

مقدمة:

تُعدُّ بلادُ المغارب إحدى المحطات الرئيسة التي عبرت من خلالها مختلف المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الإسلامية نحو بلاد السودان الغربي، وحتى قبل ظهور الإسلام وُجد ذلك الترابط التجاري بين بلاد المغرب القديم وإفريقيا جنوب الصحراء حسب ما تناولته عديد الدراسات التاريخية، واتفق أغلبها على أن هذا التواصل يزيد عن القرن الثاني الميلادي، إلا أن ذلك الترابط والتواصل لم يعرف تلك الطفرة وذلك الحجم من التأثير إلا بوصول الإسلام والعربية إلى حدود الصحراء الكبرى الإفريقية ومعه كان انتشار المذهب المالكي الذي تبنته قبائل وشعوب إفريقيا جنوب الصحراء، برغم وجود العديد من الإشارات لدى بعض المؤرخين والرحالة من تواجد مبكر للمذهب الإباضي في تلك المنطقة.

وعلى الرغم من تناول الكثير من الدراسات لذلك التواصل والتلاقح بين الشمال والجنوب وبإسهاب كبير، فان ظروف انتشار المذهب المالكي وتبني السودانيين له دون غيره من المذاهب لم يلق ذلك الاهتمام من البحث، فوجدت انه

من الممكن الوقوف على بعض التساؤلات المتعلقة بانتشاره ومن هم أبرز علمائه، وأهم إنتاجات السودانيين الفكرية فيه إن تجديدا أو تقليدا، في دراسة أحاول العودة فيها إلى أهم المصادر الإفريقية والعربية التي تناولت جوانب من الموضوع.

وللإجابة عن تساؤلات البحث قمت بتقسيمه الى:

أولا: هل تعرف السودانيون لمذاهب فقهية غير المذهب المالكي؟

ثانيا: كيف أسهم علماء المذهب المالكي المغاربة في نشره وترسيخه؟

رابعا: مميزات الإنتاج الفقهي المالكي للسودانيين وتأثره ببلاد المغرب.

أولا: هل تعرف السودانيون لغير المذهب المالكي؟

يتضح من خلال كتب التراجم الاباضية أن التجار الإباضين كان لهم دور بارز في نشر الإسلام بين السودانيين[1]، بالمقابل فان جُلّ الدراسات المصدرية المتعلقة ببلاد السودان خلال الفترة الوسيطة لا تتحدث عن اعتناق السودانيين في فترة ما لمعتقد أو مذهب غير المذهب المالكي، والإشارة الوحيدة ربما في المصادر العربية هو ما عاينه بن بطوطة في قرية زاغري بقوله " وهي قرية يسكنها تجار السودان يسمون ونجراتة ويسكن معهم جماعة من البيضان يمتذهبون مذهب الإباضية من الخوارج ويسمون صنغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري"[2].

ويتساءل المؤرخ المغربي أحمد الشكري. ان كان يعني وجود من يعتنق المذهب الإباضي دونما انتشاره الواسع، أن الدعاة والتجار من الخوارج اكتفوا بنشر التعاليم الإسلامية دون إلباسها الثوب الذي يفضلونه، ويضيف انه من الصعوبة بمكان إيجاد جواب مقنع لذلك، إلا انه يرجح بداية الاحتكاك بين المغاربة والسودانيين وبالتالي كان تدينهم في البداية سطحيا ولا يولون أهمية كبيرة للمذهب الذي يعتنقونه، والحالة هذه هل كان بإمكان الخوارج والشيعة أو غيرهما أن يعرضوا

على السودانيين معتقداتهم وهم بعد لم يستوعبوا بعمق الأركان الخمسة للإسلام ولا يتحدثون العربية[3].

ولذلك يبدو الأمر مستبعدا جداً في إمكانية انتشار المذهب الإباضي في أوساط واسعة من السودانيين، ولعل ذلك يعد السبب الذي اكتفت من خلاله المصادر بالإشارة الى دور الخوارج في نشر الإسلام دون محاولة إقناعنا بدورها في التمكين له ببلاد السودان. وعليه فان تأثير التجار الإباضين ربما اقتصر على أترابهم من التجار السودانيين بحكم الاحتكاك الدائم بهم بعيدا عن بقية فئات المجتمع الأخرى[4]،

بالمقابل يفسر تواجد المذهب الإباضي تلك العلاقات التجارية المتميزة التي كانت تربط الإمارات الخارجية في بلاد المغرب (تيهرت وسجلماسة) بممالك التكرور وغانا من الغرب الإفريقي، ولا شك أن سقوط تلك الدويلات لا يعني بالضرورة قطع التجار الإباضيين لعلاقاتهم مع بلاد السودان حتى وان كان تراجع حجم التجارة وعدد القوافل بفعل الظروف السياسية والأمنية على محور تيهرت سجلماسة اوداغشت جليا وواضحا.

ثانيا: كيف وصل المذهب المالكي الى بلاد السودان وما عوامل انتشاره؟

1-وصول المذهب لبلاد المغرب والسودان الغربي:

وصل الإسلام في وقت مبكرٍ إلى بلاد السودان الغربي حيث أرجعه بعض المؤرخين إلى القرن الثاني للهجرة، وهناك من يعود به الى فترة فتوحات عقبة بن نافع لبلاد المغرب حيث أرسل حامية عسكرية الى بلاد السوس الأقصى[5]،وهناك من يذهب أبعد من ذلك إلى أنها توغلت حتى اوداغشت[6] عاصمة غانا القديمة شمال بلاد السودان الغربي، ولئن كان انتشار الإسلام ترتبط معه بالضرورة المرجعية الفقهية المالكية خاصة ونحن في قرون الإسلام الأولى، فانه وبرغم تقلص المذهب المالكي في الحجاز مهد ظهوره، إلا أنه لقي انتشارا واسعا في بلاد المغرب والأندلس

ثم السودان الغربي حيث توطدت أركانه وقويت دعائمه حتى أصبح المذهب السائد في تلك الربوع[7].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن المذهب المالكي دخل إلى بلاد المغرب في فترة مبكرة وأثناء حياة الإمام مالك[8] نفسه، وذلك على أيدي تلامذته من تلك المنطقة ونذكر منهم علي بن زياد المتوفى عام (138هـ-799م) الذي يعتقد انه أول من ادخل المذهب إلى بلاد افريقية والمغرب، بالإضافة إلى البهلول بن راشد (128-183هـ/740-799م)[9] وعبدالله بن فروخ (110-176هـ/728-792م) الذي اخذ عن الإمام مالك نفسه، ومن تلامذة الإمام مالك أيضا في إفريقية عبد الله بن عمر بن غانم وأسد بن الفرات وغيرهم[10].

في حين بدا انتشار المذهب المالكي في أقصى بلاد المغرب في عهد إدريس بن عبد الله (172-213هـ/783-828م) لينتشر بشكل اكبر ابتداءً من القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي على أيدي دارس بن إسماعيل المتوفى عام (357هـ/967م) وتعتبره بعض الروايات على أنه أول من جاء بمدونة الإمام سحنون إلى تلك البلاد[11].

وإذا كانت المصادر العربية ساعدتنا في التحديد الزمني لانتشار المذهب المالكي في افريقية والمغرب، فإن الأمر يختلف بالنسبة لبلاد السودان الغربي حيث ان المادة المصدرية قليلة وتحمل فقط بعضا من الإشارات التي يمكن من خلالها أن نبني تصورا لواقع المذهب في تلك البلاد خاصة ما تعلق منه بالتحديد الزمني لعملية الانتشار في أوساط السودانيين، فكيف دخل المذهب إلى تلك البلاد وما عوامل انتشاره؟

2-عوامل انتشاره:

أ-**التجارة وانتشار المذهب:** أشرنا آنفاً إلى أن الروابط التجارية بين بلاد المغرب (ومنها الجزائر) وإفريقيا جنوب الصحراء تسبق ظهور الإسلام، حسب ما أوردته عديد الدراسات التاريخية والأثرية، إلا انه وبانتشار الإسلام ازدادت تلك الروابط والوشائج متانة واتسعت دائرة التبادل بين المنطقتين، وأصبح التاجر المسلم الذي يتصف بالأمانة والصدق والاستقامة، الأمثلَ تعاملاً في نظر السودانيين فدفعهم ذلك للبحث عن مصدر هذه الأوصاف وبالتالي الدخول في هذا الدين[12]، ويذكر لنا البكري المتوفى عام (487هـ/1094م) أن عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي افريقية والمغرب (130-138هـ/747-755م) اهتم بطريق القوافل فأمر بحفر الآبار التي تربط بلاد المغرب ب اوداغشت[13]، ولا شك ان تعدد الطرق التجارية الرابطة بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء تعد معابر طبيعية لانتقال الأفكار والعقائد وبالتالي المذاهب الإسلامية وفي مقدمتها المذهب المالكي.

وعلى كل تعددت طرق التجارة الرابطة بين الشمال والجنوب وتقلصت حسب الظروف الأمنية والسياسية وحتى الطبيعية ومن هذه الطرق على سبيل المثال لا الحصر نجد:

- طريق من سجلماسة إلى ولاتة ومنها إلى تنبكت ويربطها بجني وجاو.
- طريق من تلمسان ويمر بغرداية وتوات وينتهي إلى تنبكت.
- طريق من تاهرت إلى ورقلة ويتفرع عنه طريق إلى غدامس وغادس وأخر إلى غاو مباشرة، وهذا المسلك يتصل شمالا بالموانئ الجزائرية.
- من واحة الجريد في جنوب تونس باتجاه ورقلة ثم غدامس إلى غادس وتنبكتو.
- من طرابلس الغرب مرورا بغدامس ويمر فرع منه بفزان وينتهي إلى كانم- برنو ثم غاو.
- ينطلق من مصر يمر بواحة سيوة وبزويلة وتادمكة وينتهي إلى تنبكتو وجاو[14].

ب–ملائمة المذهب لنفسية السودانيين: تقبّل السودانيون الإسلام وانتشر بينهم بسلاسة وانسيابية، وارتضوا معه المذهب والعقيدة التي وجدوها لدى من أوصل إليهم هذا الدين، وهم الدعاة والتجار المغاربة، وكان مما يتصف به الفرد السوداني ولا يزال، طيبته وخفة دمه التي تدعوه للتمسك بكل ما هو أصيل، فكيف ذلك إذا ارتبط الأمر بالمذهب المالكي. خاصة إذا علم ذلك المرءُ أن هذا المذهب مصدره مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ناهيك على أن المذاهب الإسلامية الأخرى لم تكن ذائعة الصيت في المنطقة والفرد السوداني اخذ الإسلام على فطرته وسريرته وأحيانا حتى على سطحيته[15].

ويعد هذا المذهب الأقرب لمزاج وطبيعة أهل السودان الغربي، وذلك لسهولة المذهب ووضوحه فهو يعتمد على القرآن الكريم ويأخذ بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل ويوثق الحديث بالقرآن، ويأخذ من السنة بالمتواتر منها وبخبر الآحاد مثلما يأخذ مالك بعمل أهل المدينة كما يأخذ بالقياس والمصالح المرسلة والاستحسان ويأخذ بفقه سد الذرائع وقد قابل هذا المنهج ميلاً وهوىً لدى أهل السودان الغربي لأنه يتفق مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكلف أو تعقيد[16].

ج–حركة المرابطين: بعد قيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري(11م) حمل الملثمون على عاتقهم مهمة نشر الإسلام في اغلب أقاليم بلاد السودان، خاصة في ظل ضعف سلاطين مملكة غانا، وقد تزعم الحركة الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي وعبد الله بن يسن الجزولي اللذين اتخذا من منحنى نهر النيجر وقيل السنغال رباطا لهما ومنطلقا لدعوتهما في بلاد السودان، هذه الدعوة التي كان المذهب المالكي والتمكين له أساسا اعتمده بن ياسين ومريدوه وأتباعه من بعده[17].

د–الطرق الصوفية: وإن كان حضورها متأخرا نسبة إلى العوامل السالفة الذكر، فإن الطرق الصوفية بمختلف أشكالها وألوانها لم يقتصر عمل أفرادها على التأليف

والتربية الروحية بل تجاوزه إلى نشر الإسلام وخدمة المذهب المالكي، خاصة وان من تولى نشرها في عموم بلاد السودان ينحدر جلهم من بلاد المغرب أو من أصول مغاربية، فبدءً بالمغيلي في القرن 15م ووولوج الطريقة القادرية إلى المنطقة نجد أن التمكين لها تم على يد الكنتيين في القرون17 و18 و19 الميلاديين وهم بدورهم اتخذوا المذهب المالكي منهاجا فقهيا لدعوتهم[18]، والأمر نفسه ينسحب على اغلب الطرق الصوفية الأخرى وخاصة التيجانية والمريدية والشاذلية وغيرها[19]

هـ- دعم الملوك والسلاطين: يعود الفضل في انتشار الإسلام واستمراريته في ممالك السودان الغربي، إلى الدور الذي قام به الملوك في سبيل التمكين للإسلام ودعائمه، حيث أولى سلاطين مالي وسنغاي عناية خاصة بالمذهب المالكي ونشره لدى أوساط السودانيين، وتحدثنا بعض المصادر العربية عن الدور الذي لعبه السلطان منسى موسى في توطين هذا المذهب بمملكة مالي حسب ما أورده العمري بقوله "وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك"[20]؛ ونجد السعدي يذكر عن رحلة هذا السلطان إلى الحج سنة (724هـ/1324م) ولقائه بسلطان مصر المملوكي (الناصر محمد بن قلاوون) الذي طلب منه أن يقبل الأرض في حضرته، فرفض ذلك بقوله" أنا مالكي المذهب لا أسجد لغير الله، فأعفاه السلطان الناصر من ذلك التقليد وقربه إليه وأكرمه وتحدث معه"[21]، وتجسيدا لهذا المسعى دائما استقدم كاتب منسى موسى من المغرب الفقيه عبد الله البلبالي، وهو أول من تولى إمامة المسجد الجامع من المغاربة في مملكة مالي، وعلى كل تعد فترة منسى موسى حاسمة في تاريخ الترسيخ للمذهب المالكي في السودان الغربي فقد أثمرت جهوده العديدة إلى التمكين للمذهب في مملكته وعلى نفس النهج سار أخوه سليمان من بعده، والذي تتحدث المصادر عن تضلعه في المذهب المالكي[22].

وفي فترة حكم الاساكي ملوك السنغاي وريثة عرش مالي، نجد أن الأسقيا محمد الكبير أعظم ملوك السنغاي، أولى اهتماماً بالغاً بالفقه المالكي، ويذكر عنه الافراني بعد عودته من الحج بقوله "فرجع إلى السودان فنصر السنة وأحيى طريق العدل وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره ومال للسيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال"[23] وكان قبل ذلك قد أقام رواقا لطلبة بلاد السودان في مصر سمي برواق التكرور لينهل طلبتهم من الفقه المالكي، وهو ما نجده أيضا لدى ملك البرنو الذي بعث الأموال إلى مصر لبناء مدرسة ابن رشيق المالكي[24].

و- البعثات العلمية السودانية الى حواضر المغرب : يتجسد ويتمثل الترابط الثقافي والديني بين السودانيين وحواضر بلاد المغرب في ذلك العدد الكبير من الطلبة المتفوقين وبعض ميسوري الحال من بلاد السودان المتوجهين إلى حواضر بلاد المغرب من اجل التزود والتعمق في فهم الإسلام وطريقه، ولا شك أن توجه هؤلاء الطلبة الى هذه المعاهد العالية من أمثلة القيروان والقرويين والأزهر وتلمسان وغيرهم، دلالة على تلقيهم لمبادئ العلوم الفقهية والعقدية حسب مذهب إمام دار الهجرة المنتشر في بلاد المغرب،[25] فيجعلهم مرتبطين بهذه البلاد سلوكا ومنهجا وطريقةً، حيث نجد ان هناك أروقة كاملة لهؤلاء الأفارقة في هذه الحواضر العلمية، على غرار رواق التكرور في الأزهر[26]، ومدرسة ابن رشيق[27] التي مرت بنا وغيرها الكثير.

ز- ركب الحج المغربي و تأثيره في السودانيين: كانت قوافل الحج السودانية المتجهة إلى بلاد الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة تمر ببلاد المغرب وخاصة المدن الجنوبية منها مثل توات وغدامس وزويلة ومرزق وغيرها، حيث تلتقي هنالك ركب الحج المغربي، فيأخذون عنهم الكثير من المبادئ الفقهية ويتتبعون

منهجهم في الحج حسب طريقة بلاد المغرب المالكية، وقد تناولت العديد من المصادر العربية والإفريقية منها خاصة، ركب الحج السوداني وما تضمنه من عدة مادية ومعنوية هذه الأخيرة تمثلت في العلماء الذين كانت تحويهم تلك الركاب سواءً في الذهاب أو الإياب، ومن ذلك نجد إقدام الملك منسى موسى في عودته من الحج اصطحاب العالم الأندلسي الساحلي الغرناطي الذي لم يكن بناءً معماريا فحسب بل كان شاعرا وفقيها ولا شك أن دوره تعدى مجرد تعريف السودانيين البناء بالطوب المحروق، ومن بين من رافق منسى موسى دائما في عودته من الحج الفقيه العالم عبد الرحمن التميمي الذي سكن تمبكتو فوجدها عامرة بالفقهاء السودانيين حيث عجز عن مجاراتهم في علوم الفقه فما كان منه إلا أن توجه إلى فاس حيث تزود وتشبع من منابعه هناك ثم عاد مرة أخرى إلى تنبكتو فاستوطنها حتى وفاته، بعد أن خلف أبناء وأحفادا أسهموا بدورهم في نشر هذا المذهب[28]. وفي عهد الأسيقيين من حكام سنغاي، تذكر بعض المصادر أن الأسقيا محمد التوري اصطحب معه في رحلته للحج الإمامين الجليلين المغيلي وجلال الدين السيوطي[29].

ثالثا: اسهامات علماء المغرب في توطين المذهب المالكي ببلاد السودان

يندرج هذا المحور أيضا ضمن العوامل السالفة الذكر حيث أسهم علماء وفقهاء بلاد المغرب بدورهم في نشر الإسلام ومذهب الإمام مالك، ولئن كان السبق للتجار في وصول الإسلام حسب الدراسات التاريخية فان التاجر المسلم جمع بين الدعوة والتجارة، وتنقل إلينا المصادر العربية في القرن الرابع عشر الميلادي وجود بعض الدعاة المغاربة واستيطانهم في هذه الأرض، فمثلا يذكر ابن بطوطة الذي تزامن والسلطان المالي منسى سليمان عن وجود بعض العلماء من بلاد المغرب ومنهم الفقيه عبد الرحمن التميمي الذي قدم مع السلطان منسى موسى أثناء رحلته الحجية حيث توجه هذا الفقيه إلى فاس من أجل التبحر أكثر في علوم الفقه المالكي

ثم عاد إلى مالي مجدداً، وحسب بن بطوطة دائما، تتواجد في مالي محلة خاصة بالبيضان من الفقهاء والتجار المغاربة والمصريين، ومنهم الشيخ الثقة أبو عباس سعيد الدكالي الذي اقام بمملكة مالي مدة طويلة، وكان من مصادر العمري عن دولة مالي، والقاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسول، وهو من أهل سجلماسة دخل مدينة غاو واستقر بها عدة سنوات، استعمله أهل المدينة في خطة القضاء، وهذا الأخير عاصر بن خلدون وامده بالكثير من المعلومات عن دولة مالي[30].

أمّا في زمن سنغاي يأتي على رأس الفقهاء المغاربة الإمام العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي ولد بتلمسان حيث شب وترعرع واخذ مختلف فنون العلم متنقلا بين تلمسان وبجاية والجزائر وفاس ليستقر به المقام بعد ذلك في توات جنوب الجزائر ومن هناك توجه إلى بلاد السودان حيث قدم العديد من الرسائل وأجاب عن كثير من المسائل لأمير كانو محمد يعقوب، وللأسكيا محمد التوري في المصدر المعروف باسئلة الاسقيا واجوبة المغيلي[31]، ولا شك أن جميع إجاباته ونصائحه وأحكامه الفقهية كانت وفق مذهب الإمام مالك. ومن أهم مؤلفاته الفقهية "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" في كراسين وحاشية على خليل سماها "إكليل مغني اللبيب"، وقطعة على البيوع سماها" مفتاح الكنوز" و"إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل" و"تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين" ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه" وغيرها[32].

وإلى جانب المغيلي نجد أبو القاسم التواتي الذي قدم مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت وابتنى داراً بالقرب من المسجد الجامع بتنبكتو وظل هناك إلى غاية وفاته (922هـ/1516م)، ويذكر السعدي أنه كان بتنبكتو لوحدها أكثر من خمسين عالما من توات[33]؛ وإضافة إلى هؤلاء وجد الفقيه عبد الرحمن بن علي بن أحمد

القصري الفاسي الذي توفي سنة (659هـ/1549م) والذي ولد بمدينة القصر الصغير بالمغرب الأقصى وقد أخذ العلم بفاس ومصر ثم توجه لبلاد السودان.

ومن الفقهاء ذوو الأصول المغاربية أيضا الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي، الذي عرف بأيد احمد المتوفى عام (960هـ/1529م)، والفقيه علي الجزولي الذي ولاه الإمامة القاضي محمود، والفقيه فياض الغدامسي الذي صلّى على أبي القاسم التواتي بعد وفاته، والفقيه محمد تل الشريف الذي حج مع الاسكيا محمد والذي كان يحترمه احتراما كبيرا.

وإلى جانب هؤلاء وُجِدتْ عائلات كاملة مغاربية تولت أمور التدريس والتعليم والإفتاء على مذهب الإمام مالك، ومن بينها عائلة تعلى، وعائلة الخضر، وكان جدها الأول الذي قدم من فاس كاتبا خاصا لسني علي، والعائلة التواتية، وعائلة القصرى، وأخيرا عائلة الفيلالي في تنبكتو[34].

رابعا: المذهب المالكي مرجعية فقهية للسودانيين

بالعودة إلى المصادر التاريخية والدينية التي تناولت جوانب من الأسس التي قامت عليها المدارس الفقهية لبلاد السودان الغربي، وما خلفت لدينا من تراث علمي وفقهي، سنجد أن ذلك يرتبط كليةً بما كانت تعرفه بلاد المغرب آنذاك من كتب الفقه على غرار مختصر خليل، وجامع المعيار، وتحفة الحكام، ومختصر الفروع[35]، والمدونة، والرسالة، وموطأ الإمام مالك[36]، وغيرها ولم يتوقف فقهاء بلاد الساحل عند تدريس وقراءة هذه المؤلفات الفقهية المالكية بل انتقلوا من طريقة الانتحال منها إلى التأليف بوضع مختصرات وشروح لهذه الكتب وفق متطلبات المكان والزمان.

وإذا كان الفضل في نشر المذهب في ربوع بلاد السودان يعود لفقهاء ودعاة بلاد المغرب، فان المرحلة الثانية من الانتشار والترسيخ يعود الفضل فيها للعلماء السودانيين سوآء ممن تكونوا ودرسوا محليا او من تعلموا في حواضر بلاد المغرب،

ويأتي على رأس هؤلاء الفقيه العلامة احمد بن عمر بن محمد اقيت المعروف ببابا التمبكتي ويكنى بابي العباس، نهل من شتى فنون العلم وحاز على إجازات فيها، وبعد مشوار طويل مع التحصيل نقل معارفه الفقهية والدينية إلى تلامذته حيث جلس إلى التعليم و التأليف والإفتاء حتى تهجيره إلى مراكش عام 1002هـ/1593م، حيث قضى هنالك أربعة عشر عاما أفاد خلالها بعلمه كما استفاد من غيره، حتى عودته إلى تنبكتو ووفاته سنة 1036هـ/1627م.

وتعد آثار احمد بابا العلمية من أقوى الدلائل على سيادة المذهب المالكي في هذه الربوع وتأتي على رأس مؤلفاته ما وضعه للتعريف بعلماء المذهب المالكي والمسمى "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" وقد ألفه على هامش كتاب ابن فرحون، وقد ترجم أحمد بابا في نيله لثمان مائة واثنين من علماء المذهب المالكي في حين احتوى مؤلفه الثاني بعنوان "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" على سبعمائة ترجمة لعلماء مالكيين مشارقة ومغاربة وأندلسيين وسودانيين، وقد ألفه أثناء إقامته في مراكش، ومن مصنفاته في الفقه المالكي دائما " متن الرّب في تجميع مهمات خليل"، و"اللمغ في الإشارة لحكم طبغ" و"حكم الرزاق في مسالة الشك في الطلاق" و"أجوبة الأسئلة المصرية"، وغيرها لكثير من التعليقات والشروح لمتون الفقه وغيرها من العلوم.

وقد أورد احمد بابا في نيله ما يفيد انتشار مؤلفات الفقه المالكي في بيئة السودان الغربي الثقافية حيث أشار إلى انه درس العديد منها على يد أستاذه محمد بغيغ، وقد قال" ...لازمته أكثر من عشر سنين فقرات عليه بلفظي مختصر خليل وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه، أما خليل فمرارا عديدة ...وحضرته كثيرا في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث وكثيرا من تحفة الحكام

لابن عاصم في الاحكام مع شرح ولده عليها، وسمعت بقراءته هو كثيرا من البخاري ومسلم ...وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملا..."[37].

وإلى جانب احمد بابا من علماء الفقه المالكي في بلاد السودان في هذه الفترة الفقيه محمد بن احمد التازختي، الذي ألّف شرحا لمختصر خليل، والفقيه العاقب بن عبد الله الانصمني، الذي رحل إلى المشرق والمغرب ونهل من مختلف العلوم ورجع إلى السودان الغربي، واشتغل بالتدريس، وله عدة مؤلفات من أهمها (الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود) و(أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير) وهو جواب عن أسئلة وجهها إليه الاسكيا محمد الكبير وكتاب في وجوب الجمعة في قرية انصمن[38]، والفقيه محمود بن عمر اقيت الذي ألف شرحا حول مختصر خليل من جزئين ، كما ألف سيدي احمد بن آبي بكر الوادّاني الحاجي الذي كان حيا عام 933هـ/1525م شرحا على مختصر خليل في مجلدين سماها "موهوب الجليل بشرح مختصر خليل" وقد وصف صاحب فتح الشكور هذا التأليف بان فيه نكت عجيبة ومسائل مفيدة ونقولا صحيحة[39].

إلى جانب من ذكرنا من الفقهاء نجد عمر الولي بن الشيخ محمد عبد الله المحجوبي المتوفى عام (1070هـ/1659م) الذي ألف مقدمة في الفقه[40]، والفقيه سيد احمد بن القاسم بن سيد احمد بن علي بن يعقوب الوداني الحاجي اليعقوبي المتوفى عام (1086هـ/1675م) وله فتاوى عديدة في الفقه سلك فيها طريق الاختصار في التعريف والتأليف[41].

خامساً: مميزات الإنتاج الفقهي المالكي لبلاد السودان وتأثره بالفقهاء المغاربة

ارتبطت حركة التأليف والإنتاج الفقهي لبلاد السودان بما عرفته بلاد المغرب الإسلامي من حيث المظاهر الموحدة والمميزة لهذه الحركة الفقهية، ويمثل القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ذروة ما وصل إليه السودانيون في

هذا المجال وهي تمثل بذلك انعكاسا آخر لما عرفته بلاد المغرب، إلا أننا نقف عند نقاط ثلاث ميزت هذه الحركة الفقهية وهي:

1-طابع التقليد: لم يتوقف فقهاء السودان كم أشرنا عند تدريس أمهات كتب الفقه المالكي بل تعداه ذلك الى محاولة الإنتاج وان لم تكن مستقلة، حيث يرى عبد القادر زبادية أن ما أنتج السودانيون من مؤلفات فقهية تخلو من التجديد ولا تتعدى شرح كتب السابقين ووضع الحواشي والتعليقات عليها وغير ذلك مما لا يخرج عن دائرة التقليد[42].

والواقع أن ظاهرة التقليد التي طغت على الحركة الفقهية في السودان ظاهرة سادت العالم الإسلامي كله في تلك الفترة ولم تقتصر على جهة دون أخرى، ولعل شيوع هذه الظاهرة هو ما جعل السودانيين يتشبثون أكثر بالمذهب المالكي وبالتالي الإعراض عن المذاهب الفقهية الأخرى، في ظل غلق باب الاجتهاد وإجبارية الالتزام بالمذهب الواحد وان الخروج عنه بدعة وضلالة[43].

2-طابع الاختصار: إلى جانب التقليد غلب على الإنتاج الفقهي لعلماء بلاد السودان طابع الاختصار فاغلب الكتب الفقهية المعتمدة في حلقات التدريس والإفتاء نجدها مختصرة ، والواقع أن ظاهرة الاختصار التي اصطبغ بها الفقه الإسلامي في المنطقة خاصة بالسودان الغربي وحده بل سادت اغلب بلاد العالم الإسلامي، وان تفاوتت من منطقة لأخرى، وقد بدأ ظهور المختصرات الفقهية المالكية منذ القرن الثالث الهجري وازدادت انتشارا في القرون الموالية، ولا شك ان هذه الظاهرة في نظر كثير من الباحثين ناتجة عن غلق باب الاجتهاد وبالتالي ركون الفقهاء إلى الخمول الفكري باقتصارهم على ما وجدوه من كتب ووضع تصغير واختصار لها، على ان طائفة أخرى كانت ترى في ذلك إنقاذا للتراث الفقهي من الاندثار وتسهيلا للحفظ واستثماراً للوقت.

ومن العلماء الذين هاجموا ظاهرة الاهتمام بالمختصرات دون أمهات الكتب الفقيه احمد بابا التنبكتي بقوله في معرض حديث عن مختصر خليل والرسالة واهتمام الناس بهما "...فعكف الناس عليها شرقا وغربا حتى لقد آل الحال في هذه الأزمنة المتأخرة إلى الاقتصار على المختصرات في هذه البلاد المغربية مراكش وفاس وغيرهما فقلّ أن ترى أحدا يعتني بابن الحاجب فضلاً عن المدونة بلْ قصار اهم الرسالة وخليل وذلك علامة دروس الفقه وذهابه..."[44]. وبرغم هذا الموقف من أحمد بابا فانه لم يخرج عن دائرة ما أنكره، بحيث إن إنتاجاته الفقهية في اغلبها لم تخرج عن دائرة الانتحال والتقليد والاختصار، وهي عبارة عن شروح وحواشي على مختصر خليل أو غيرها من الكتب الفقهية المالكية[45].

3-طابع الحفظ: تعد ظاهرة الحفظ انعكاسا ونتيجة مباشرة لظاهرتي الاختصار والتقليد، لذا اهتم الفقهاء بالحفظ وأصبح معيارا للفقه، وكان العلماء يحثون الطلبة وكل من يشتغل بالعلم بضرورة الحفظ، ومن مظاهر سيطرة الحفظ على الحركة الفقهية استظهار الفقهاء مختصر خليل والرسالة والتوضيح والمدونة وغيرها من الكتب الفقهية كما يحفظون القرآن، ويبدو أن اهتمامهم بالحفظ يعود إلى قلة الكراريس والأوراق التي ينسخ عليها، ناهيك عن ندرة الكتب وارتفاع أثمانها، وجميع ذلك يمثل انعكاسا لما هو سائد في بلاد المغرب الإسلامي يتحدث بن خلدون عن ذلك بقوله"...تجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتًا لا ينطقون ولا يفاضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه أن فاوض أو ناظر أو علم، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم ابلغ من حفظ من سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم انهُ المقصودُ من الملَكَةِ العلمية وليس كذلك ..."[46].

على أن نتبين من خلال هذه النصوص برغم أهمية ملكة الحفظ في النقل والتلقي والتعليم للطلبة والسائلين فان ذلك يضعف من أهمية العقل للتفكير والاجتهاد وهو ما يغيب في أكثر مؤلفات بلاد السودان، هذا ناهيك عن صفة النقل الحرفي

دونما سند أو توثيق، وان كان ذلك يدخل في إطار ضرورة إيصال المعرفة دون النظر إلى الوعاء الذي احتوته أو استندت إليه.

خاتمة البحث:

بقي أن نشير في ختام هذا البحث إلى أن انتشار هذا المذهب المالكي وتبني السودانيين له قد حال دون بروز المذاهب الفقهية الأخرى، التي وإن تواجدت فباحتشام وفي فترة مبكرة من وصول الإسلام على غرار المذهب الإباضي في فترة سيادة إمبراطورية غانا على بلاد السودان أو المذهب الشافعي حول حوض تشاد حسب القلقشندي، وهو دليل آخر على أن إقبال السودانيين على المذهب المالكي كان تلقائيا تبعا للمؤثرات المغربية في المنطقة.

– الفضل الأكبر في انتشار الإسلام والعربية ومن خلالهما المذهب المالكي يعود للدعاة والتجار أولاً وبعدهما المرابطون والطرق الصوفية كل حسب دوره واسهامه.

– لا شك أن العوامل السالفة الذكر لعبت دورا هاماً في تقبل السودانيين للمذهب المالكي دون غيره من المذاهب الأخرى.

– أثبتت الدراسة أن فقهاء وعلماء بلاد السودان غلب عليهم الحفظ والانتحال والاختصار فيما الفوه من كتب وحواشي فقهية عن المذهب المالكي تبعا لحداثتهم بالإسلام ولأوضاع المنطقة الاجتماعية منها والثقافية.

–قدمت بلاد السودان فقهاء وعلماء أجلاء في المذهب المالكي وتوارثوا ذلك في بعض الأسر العلمية مثل آل اقيت، وبغيغ، وغيرهم ومن أبرز فقهاء بلاد السودان خلال فترة الدراسة احمد بابا التمبكتي.

–هناك الكثير من المؤلفات الخاصة بهذا الميدان من البحث بعضها اتلف وآخر أتت عليه عوامل الزمن وثالث لا يزال في حاجة إلى تحقيق وبعث لدى بعض الأسر السودانية أو في مركز المخطوطات بتمبكتو.

وإذا ما حاولنا أن نربط الأمس باليوم نجد أن الفقه المالكي لا يزال هو السائد في بلاد الساحل إلا أن هناك الكثير من التجاذبات السياسية والدينية التي تعرفها المنطقة كان لها كبير الأثر على هذا المسلك الفقهي، لذا وجب على بلدان المغرب وفي مقدمتها الجزائر أن تسعى جاهدة للحفاظ على المرجعية الفقهية لهذه المنطقة بدعمها دينيا وثقافيا من خلال تكوين أئمة في المذهب وربط علاقات علمية على أسس وأهداف معرفية تخدم الدين أولا والسياسة والأمن ثانيا في إفريقيا الإسلامية عامة وبلاد الساحل خاصة.

الإحالات والهوامش:

1-الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، طبع وتحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر، 1974، ج2، ص517.

2-بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار إحياء العلوم، لبنان، 1987م، ص779.

3- الشكري احمد : الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي1230-1430م، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م، ص273.

4-نور الدين شعباني: التواجد المذهبي في السودان الغربي بين القرنين الخامس والعاشر للهجرة، دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر، ديسمبر2012، ص36.

5-البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، (جزء من سلسلة المسالك والممالك) دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص10.

6-اوداغوشت: أسست في القرن الثامن الميلادي شمال غرب إفريقيا وتقع آثارها في جنوب موريتانيا الحالية وقال عنها البكري في المسالك والممالك بأنها تقع بين بلاد الزنوج وسجلماسة وذكر أن أهلها خليط من التجار العرب القادمين من مدن المغرب الشمالية والباقي برابر واباضية ومن زناتة ولواتة ونفزاوة. انظر يحي بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر الى مطلع القرن العشرين، دار البصائر، طبعة خاصة، 2009م، ص155.

7-عمر الجيدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح، الدار البيضاء،1987، ص24.

8- الإمام مالك رضي الله عنه: هو أبو عبد الله مالك بن انس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي إمام دار الهجرة ينتمي إلى قبيلة حمير التي ترجع أصولها إلى قحطان، ولد رضي الله عنه بالمدينة المنورة سنة (93ه/711م) وتوفي (179ه/م795م) انظر عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، تحقيق احمد بكير محمود، مكتبة الحياة، بيروت،1968، ج1، ص102.

9-البهلول بن راشد: هو أبو عمرو كان ثقة مجتهدا ورعا سمع من مالك بن انس ومن سفيان الثوري والليث بن سعد وغيرهم، وسمع منه مشايخ افريقية، منهم سحنون وعون بن يوسف الخزاعي ويحي بن سلام المتوفى عام (183هـ/799م)، انظر تميم القيرواني: طبقات علماء افريقية وتونس، تحقيق علي الشامي ونعيم حسن، الدار التونسية للنشر،1985م، ص112.

10-حسين مراد: المذهب المالكي في السودان الغربي، مجلة الوقائع التاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة، يناير 2006م، ص35.

11-عمر الجيدي: المرجع السابق، ص24.

12-سحر عنتر: فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2011م، ص69.

13-البكري: المصدر السابق، ص349.

14-يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص40.

15-سحر عنتر: المرجع السابق، ص102.

16- عمر الجيدي: المرجع السابق، ص31.

17- عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا1038-1121م، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م، ص141. ينظر أيضا، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص13.

18- حسن الصادقي: أضواء على الثقافة العربية في إفريقيا في العصر الحديث(مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2012م، ص05.

19- محمد الصافي: التصوف المغربي ودوره في ترسيخ العلاقات الروحية مع بلدان إفريقيا خلال العصر الحديث، أعمال ملتقى التصوف والحواضر الروحية في بلاد المغارب، الناشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2018م، ص313.

20- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، 2001، ج4، ص74.

21- السعدي: تاريخ السودان، نشر وتحقيق هوداس، باريس، ط2، 1964، ص05.انظر أيضا، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة، 1983، ص294.

22-العمري: مصدر سابق، ص59.

23-الافراني محمد الصغير: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مكتبة الطالب، الرباط، 1998م، ص161. ينظر أيضا السلاوي الناصري: الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971، ج2، ص296.

24-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص295.

25-محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس، باريس،1964، ص23.

26-مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط1، 2004م، ص242.

27-المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987، ج2، ص123.

28-الارواني: السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، تحقيق الهادي مبروك الدالي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية،2001م، ص94، 95.

29-سحر عنتر: المرجع السابق، ص128.

30-ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار المعارف، القاهرة، 1966م، ج4، ص665.

31-المغيلي: أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص160.

32-مطير سعد: المرجع السابق، ص ص267،268.

33-السعدي: المصدر السابق، ص65.

34-سحر عنتر: المرجع السابق، ص ص122،123.

35-Marty Paul, Etudes sur l'islam et les tribus des soudan, tome premier, les kounta de l'est – les Berabich les Iguellad, Paris, Edition Ernest, 1920, P32.

36-السعدي: المصدر السابق، ص93.

37-التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م، ص602. انظر أيضا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2000م، ج2، ص239.

38- التنبكتي: المصدر السابق، ص353.

39-البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي،1984م، ص113.

40- مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص245.

41- البرتلي: المصدر السابق، ص40.

42-زبادية: سنغاي في عهد الاسقيين 1493-1591م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص132.

43-عبد الرحمن ميغا: الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 الى القرن 13 الهجري، منشورات وزارة الأوقاف، المملكة المغربية،2011م، ص53.

44-التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 171.

45-عبد الرحمن ميغا: المرجع السابق، ص55.

46-ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة عبد الكريم للطباعة والنشر، 1979م، ج6، ص356.